الليث خشي من العار المضاض فرأى أن الموت أهون عليه من عار الهرب. فاختار المنية ولا الدّنية.

مات الليث ـ إذن ـ مختاراً. وكان من قبل جباراً ومخيفاً ومرعباً. وفي ذمته رقاب كثيرة من رقاب البشر، كانت تشكل اهرامات من الجماجم البشرية يعرفها نهر الأردن الذي وقعت عليه البليّة مثلما يعرف الفرات والنيل زئيره ويرتعدان رعباً منه.

هذا موت مبرر من جهة وشريف ونبيل من جهة ثانية. موت له سبب وله غاية، وهو موت له معنى ومدلول. مثلما أن حياة الليث كانت مليئة بالدلالة، منذ أن كانت له مملكة صوتية ضاربة.

وهذا يختلف عن موت أسد البحتري وعن حياة ذلك الأسد. هنا عند المتنبي القوة والعنفوان والسببية. وهناك عند البحتري الضعف والدعة والعبثية.

جاء أسد المتنبي ظالماً وكان موته موت استحقاق وحق. ولم يكن الممدوح معتدياً ولا ظالماً، بل ظهر بمظهر الرجل المنصف والفارس الشريف الذي ترك خصمه يستعدّ، فبانت عليه العدالة والنبل وهنا يصحّ المديح. بينما كان أمر البحتري على نقيض ذلك حيث ظهر الممدوح معتدياً، وغدّاراً، ألم يقل البحتري عن الأسد:

أدلَّ بشغب ثم هالته صولة

فهذا المتدلل المسكين وقع ضحية لضربة مباغتة من ابن خاقان صاحب البحتري. بينما يقول المتنبي عن صاحبه والليث: